

على مفترق طرق: دراسة في رواية
الشمعة والدهاليز للطاهر وطار

د. محمد محمود الخزعلي

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة اليرموك

أربد - الأردن

ملخص

تدرس هذه الورقة رواية الكاتب الجزائري الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، التي تتخذ، موضوعاً لها، التطورات التي وقعت في الجزائر قبل انتخابات 1992، والتي ألغت السلطة الجزائرية نتائجها. وتدرس كيف استطاع الكاتب أن يصور في رواية يختلط فيها الواقع بالحلم، والحاضر بالماضي، والمادي بالماورائي، هذه التطورات وأسبابها السياسية والاجتماعية والثقافية التي تعود بجذورها إلى حقبة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

Abstract

This paper studies al-Tahir Wattar's al-Sham'a wa al-Dahaliz (the Candle and the Vestibules) which takes, as its subject matter, the developments that took place in Algeria before the election of 1992, which the Algerian government annulled its results. It also studies how the writer, in a novel where reality and dream, the present and the past, the physical and the metaphysical, are all juxtaposed and intertwined together, was able to depict those developments and their political, social, and culture roots which go back to the era of the French colonization of Algeria.

اتخذ الروائي الجزائري الطاهر وطار من تاريخ الجزائر الحديث موضوعاً لبعض رواياته؛ حيث يجعل من حقبة تاريخية معينة مساحة زمنية تدور فيها أحداث يتناولها في هذه الرواية أو تلك من رواياته، ليسلط عليها ضوء النقد والتحليل سلباً أو إيجاباً. فقد تناول في روايته اللّاز، مثلاً، حقبة من تاريخ الجزائر، تمتد بين عامي 1954 و 1962، بالتحليل والنقد من أجل تعرية الواقع للوصول إلى الجذور، لكي يستطيع بعد ذلك إبراز الوجه الجديد لبلاده، كما يقول في تقديمه للرواية.⁽¹⁾ وقد رصدت الرواية الكفاح المسلح للثورة الجزائرية، ومشكلات ما بعد الاستقلال والمفارقات المأساوية التي ظهرت بعد تسلم بعض رموز الثورة للسلطة، وبروز الرجعيين والانتهازيين ليغنموا مكاسب الثورة وليجعلوا من الثوار ضحايا لتلك الثورة، والمقاتلين الشرفاء مجرد متلقين للإعانات من مكتب رعاية أسر الشهداء.⁽²⁾

ويمكن للباحث أن يعد رواية الشمعة والدهاليز⁽³⁾، الصادرة عام 1996، جزءاً آخر يتبع رواية اللّاز. فقد دارت وقائع هذه الرواية قبل انتخابات عام 1992 التي ألغت السلطة الجزائرية نتائجها فكانت الشرارة التي أشعلت الأحداث الدموية والمذابح المروعة في المجتمع الجزائري. إن السلبات العديدة التي سلط عليها الكاتب الضوء في رواية اللّاز، استمرت وانتشرت في المجتمع الجزائري، كما سنلاحظ في تصويره ونقده لهذه السلبات في روايته الشمعة والدهاليز، حتى أوصلت هذه السلبات ذلك المجتمع إلى مفترق طرق؛ إما التمسك بالماضي وسلباته التي حملها، أو القطيعة مع ذلك الماضي من أجل بناء مجتمع جديد يتخلص من كل السلبات التي ولدت ونمت ثم استشرت في ذلك الماضي.

تبين الرواية أن السلطة التي ورثت الثورة الجزائرية قد فشلت في تحقيق مشروعها في بناء مجتمع ما بعد الاستقلال، مجتمع يتخلص من سلبيات الاستعمار التي عانى منها الجزائريون في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. وتبين الرواية أن هذه السلطة فشلت في تحقيق طموحات الشعب الجزائري في كل المجالات السابقة، لأسباب بنيوية تتعلق بتركيبة حزب جبهة التحرير الوطني الذي قاد النضال ضد الاستعمار الفرنسي والذي تسلم السلطة بعد الاستقلال. ولقد كانت حرب التحرير ثورة شعبية على الاستعمار الفرنسي، ولم تكن حرباً ذات استراتيجية واضحة يطبقها جهاز سياسي واحد⁽⁴⁾. من هنا كانت جبهة التحرير الوطني التي قادت النضال جبهة ذات تركيبة تناقضية، حيث كانت مفتوحة لكل الأطياف السياسية بشرط أن يدخلوا الجبهة بوصفهم أفراداً لا أحزاباً أو ممثلين لأحزاب. من هنا لم تكن أيديولوجية الجبهة خلال الثورة أيديولوجية متماسكة، كما أنها لم تساعد على خلق البديل المتماسك للأيديولوجيا الاستعمارية⁽⁵⁾. وبعد أن تسلمت الجبهة السلطة في الجزائر بعد الاستقلال، لم تعمل على خلق فرص حقيقية⁽⁶⁾ لمشاركة الأطياف السياسية المختلفة، في الحياة العامة من أجل أن تدفع باتجاه خلق تنمية ثقافية وسياسية حقيقية في المجتمع الجزائري، مما أدى إلى ركود فعلها وترهل كوادرها وفسادهم، مما أدى إلى ابتعاد الجماهير عنها شيئاً فشيئاً، وهذا أدى إلى الانتقاص من شرعيتها.

وقد فشلت حركة التعريب التي هدفت إلى إنشاء ثقافة عربية ذات هوية عربية تحل محل ثقافة المستعمر الفرنسي الغريبة عن المجتمع الجزائري العربي المسلم. ولم يستطع، أو الأصح القول، لم يُسمح للتعريب بالتغلغل في جميع جوانب الحياة في الجزائر، بل ظهر ضمن السلطة الحاكمة من ينظر للثقافة العربية على

أنها تمثل الماضي والتخلف وأن اللغة الفرنسية وثقافتها تمثلان التقدم أو السبيل الأمثل للتقدم، بل إن السلطة كما يقول غازي حيدوسي:

تنازلت السلطة عن تسيير السياسة الثقافية والتربوية للتيار العروبي في الجهاز السياسي الذي استخدمها لتوسيع رقعة مؤيديه، ولتخفيض قيمة المدرسة واحتكار الخطاب الديني. وفُوض أمر التسيير الاقتصادي، ومن ثم شروط التوصل إلى العمل، إلى التيار الفرنكوفوني، الذي اعتقد، هكذا، بأنه يقاوم انحدار النظام التأهيلي، وأنه يمسك بروافع الحداثة. تجاهل التياران بعضهما بعضاً، وانتظرا تصادم قواهما في اليوم الموعود، محافظين على تحالفهما، في السلطة مع الجيش⁽⁷⁾.

وهكذا لم يصل التعريب أجهزة الحكومة الاقتصادية والإدارية والسياسية، وانشصر التعريب، في الجامعة، في الفروع الأدبية دون العلمية، أي في العلوم الاجتماعية والإنسانية والدينية، مما أدى إلى مشكلة في الوظائف عند الخريجين؛ حيث لا يفتح أمام المعربين إلا التوظيف في مجالات التعليم في الآداب أو العلوم الدينية أو في الإعلام لشغل وظائف غير قيادية، وظل العمل في النشاط الاقتصادي مغلقاً أمام هذه الفئات وحكراً على فئة المفرنسين، من هنا شعر المفرنسون أن التعريب يهدد مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية فقاوموه بشتى الوسائل⁽⁸⁾. وهكذا ظهر اتجاهان متناقضان في المجتمع الجزائري لا تصالح بينهما، اتجاه أنصار تسييد اللغة العربية واتجاه أنصار تسييد اللغة الفرنسية. المنتمون للأول اتهموا المنتمين للاتجاه الثاني بأنهم معادون للثوابت الوطنية للشعب الجزائري ومرجعياته الحضارية، بل اتهموهم في بعض الحالات بأنهم عملاء لفرنسا، في حين يرد أنصار الاتجاه الثاني بأنهم يتعاملون مع واقع لا دخل لهم في صنعه⁽⁹⁾. وقد نتج

عن الاتجاه الثاني ما يمكن تسميته بمجتمع العصرية المتفرنس، الذي⁽¹⁰⁾ يتشكل من فئات الطبقة الوسطى المتحالفة والمرتبطة بأجهزة الدولة وأجهزتها الإنتاجية، ومن هنا صارت تشكل القاعدة الاجتماعية للنظام السياسي في الجزائر؛ فهي فئات موجودة في القطاعات الاقتصادية والسياسية والإعلامية مما يعطيها قوة المهيمن اجتماعياً. وإلى جانب هذا أصبح القطاع العام الغني بالأراضي والعقارات منبعاً حقيقياً للإثراء غير المشروع للنخب المختلفة في المجتمع الجزائري مما جعلها تحظى بامتيازات تسمو بها على بقية المواطنين. وقوام هذه النخب البيروقراطية في الإدارة العليا والحزب والجيش⁽¹¹⁾. وكانت البيروقراطية الجزائرية تتشكل من أناس تدربوا على أيدي الحكم الفرنسي المستعمر، وفي نفس الوقت لم تكن هذه البيروقراطية تستند إلى طبقة قوية مما أدى بها إلى الوقوع في أحضان الجيش لتتخذ منه سنداً. لكن الجيش الذي تشكل أساساً من أفراد ذوي أصول ريفية⁽¹²⁾، تحول مع الزمن إلى طبقة منفعلة ذات مصالح. ومن هنا أصبحت البيروقراطية الجزائرية المستندة إلى الجيش عائناً أمام أية تنمية اقتصادية حقيقية وخاصة أن الدولة الجزائرية:

قامت إلى جانب بناء موجود فعلاً فُصل لملائمة الأعراف الرأسمالية في الحكم. وقد ضمننت أيديولوجيا الاشتراكية والتحرك صوب الاكتفاء الذاتي الاقتصادي أن تتحول البنية البيروقراطية الاستعمارية إلى خدمة الأهداف الاقتصادية- الاجتماعية الجديدة⁽¹³⁾.

وهكذا أصبح جهاز الدولة يقوم بإنتاج طبقة جديدة إضافة إلى إعادة إنتاج طبقات قديمة. وأخذت الطبقة الحاكمة تبتعد شيئاً فشيئاً عن حياة الطبقات الفقيرة المهمشة

تلك الطبقات التي تتزاحم في الأحياء الفقيرة وفي الأكواخ المحيطة بالمدن، وهذه الطبقات كانت حطب الثورة الجزائرية التي هدفت إلى تخلص هذه الطبقات من نير الاستعمار وإلى تغيير أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية السيئة. وإلى جانب هذه الجماهير المهمشة كانت حياة الطبقة السياسية-الرأسمالية تعكس الجانب الأكثر مادية، وتبتعد عن كل التقاليد الثقافية والدينية التي محاها الاستعمار الفرنسي. وقد كرست هذه الطبقة، في ظل حزب جبهة التحرير الأوحده، الأموال لتوفر لنفسها حياة مادية تقوم على البذخ والإنفاق الفاحش على البيوت الكبيرة والسيارات الفارهة والنوادي والملاهي الليلية⁽¹⁴⁾، مما جعل المفارقة بين مسيرة حياة هؤلاء وحياة الجماهير المهمشة مفارقة تبعث على الحزن والفجيرة. ونتيجة لهذا لم تنجح سياسة التسيير الذاتي القائمة على النهج الاشتراكي الذي ادعته السلطة سياسة لها، في إنتاج تنمية حقيقية تؤدي إلى رفع سوية الوضع الاقتصادي للبلاد وتخلصها من التبعية الاقتصادية للمستعمر وترفع كذلك من سوية الوضع الاقتصادي والاجتماعي للمواطنين خاصة في الريف والأحياء الفقيرة في المدن. وأخذت تظهر للعيان آثار ربع قرن من الفساد والتبذير والحزب الأوحده، وهي تتمثل في عقم ثقافي وأخلاقي، وفقدان للهوية الوطنية، والطاقة المهدورة، وتهميش الجماهير الشعبية، وكراهية الطبقة الجديدة.

وقد أدى هذا إلى تشتت المجتمع الجزائري بين هويات عدة، لكنها تنحصر في اتجاهين؛ اتجاه عروبي يدعو إلى الهوية الإسلامية، واتجاه متفرنس بربري يدعو إلى أفريكانية الجزائر⁽¹⁵⁾. أما الاتجاه الإسلامي الذي يرى في الإسلام عقيدة يمكنها حسم هذا التشتت، فقد ضم اتجاهات مختلفة في اعتدالها أو تطرفها. ومع اقتراب نهاية العقد الثامن من القرن العشرين، أصبحت الجزائر، مجتمعا ودولة،

تعيش أزمة حادة لم تعرف مثلها من قبل. وهي أزمة "تهدد بنسف أسس المجتمع وتقويض أركان الدولة إن لم يتم تداركها ومعالجتها في الوقت المناسب وبطريقة جذرية".⁽¹⁶⁾ ولعل من أهم معالم هذه الأزمة تشنج السلطة وعدم تنازلها عن مواقفها المتصلبة التي لا تسمح للآخرين بالمشاركة في اتخاذ القرار في أي شأن من شؤون البلاد، وكذلك تشنج الطرف الثاني الذي أصبح يعرف بالمعارضة والذي تشكل عموده الفقري المعارضة الإسلامية التي ترفض العديد من فصائلها إمكانية التعايش مع النظام القائم. وقد كان من معالم الأزمة أيضاً إلغاء السلطة لنتائج انتخابات عام 1992 التي فازت فيها المعارضة الإسلامية، واستخدام بعض فصائل هذه المعارضة السلاح رداً على ما فعلته السلطة، ولترى في السلاح الوسيلة الوحيدة لتحقيق غاياتها. وهكذا أصبحت الآفاق السياسية مغلقة مما زاد من مصاعب نجاح أية محاولة للانتقال السلمي إلى نظام تسوده الحرية والعدالة والمسؤولية.

إن رواية الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، تستوحي هذه الظروف والأحداث في بحثها عن أسباب الأزمة التي نتجت عن إلغاء انتخابات عام 1992م. إنها رواية يختلط فيها الواقع بالحلم، والحاضر بالماضي، والحقيقة بالفنطازيا، والمادي بالماورائي، ليخلق واقعاً روائياً موازياً، ربما، لواقع المجتمع الجزائري. لقد أقام الكاتب عمله هذا على شخصية رئيسية واحد تتمحور حولها كل الأحداث وكل الشخصيات الأخرى. لقد اختار شخصية مثقف شاعر وباحث يدرس علم الاجتماع في الجامعة.

لقد نشأ هذا الشاعر المثقف في بيت كل من فيه كان مشتركاً في الثورة ضد الاستعمار الفرنسي، وبذلك تشبع روح النضال ضد المستعمر منذ بدايته الأولى. بل كان هو مشتركاً في هذا النضال منذ كان صبياً عن طريق نقل الأخبار عن

تحركات الجنود الفرنسيين، لوالده ولعمه المختار. وقد دخل هذا الصبي المدرسة ليتعلم الدين الإسلامي مدفوعاً بفضول "المعرفة ما سيطر على عقول الأجداد طوال خمسة عشر قرناً".⁽¹⁷⁾ وقد بارك عمه وأبوه ذلك إذ أرادوا له أن يصبح قاضياً إسلامياً استعداداً لمرحلة ما بعد الاستقلال؛ حيث أن قانون فرنسا، حسب رأي والده وعمه، لم يعد صالحاً لحل مشكلات الجزائريين، وأن الفرنسية لن تعود تنفع أحداً.

⁽¹⁸⁾ وهكذا كان الصبي مشبعاً بروح الإسلام والعروبة حتى عندما كان في المدرسة الفرنسية. وقد ظهر هذا من خلال تشبّئه بالفلكلور المحلي في مشاركته في حفلة المدرسة وعزفه لحناً فلكلورياً مغرباً في محليته على آلة عزف شعبية، أمام استهجان العديد من الحضور ومن الطلبة وأولياء أمورهم الذين كانت تطغى على عقولهم ونفوسهم الثقافة الفرنسية وكل ما هو فرنسي. من جهة أخرى أراد مدير المدرسة الفرنسية لهذا الفتى أن يكون مشروع جسر بين فرنسا والجزائر في مرحلة ما بعد الاستقلال؛ إذ كان هذا المدير يرى أن استقلال الجزائر واقع لا محالة، قصر الزمان أم طال. لذلك أراد أن يكون هذا الفتى عامل بناء لبنني ما يهدمه عمه وأبوه. وهنا نلاحظ تمسك فرنسا بنفوذها في مستعمراتها حتى لو تغيرت أشكال السيطرة لإبقاء نفوذها. وقد نجحت في ذلك إذ غرست في الجزائر أعداداً كبيرة ممن تشبعوا بالثقافة الفرنسية والذين يعملون في أجهزة الدولة المختلفة، وبذلك شكلوا جسراً عبر عليه حضور فرنسا الدائم في الجزائر. وفي المدرسة الفرنسية ذاتها كانت بداية اطلاع هذا الشاب الصغير على الفكر الماركسي على يدي القيمّ العام في المدرسة، الذي كان له موقف مناقض لموقف فرنسا الرسمي من استعمار الجزائر، ومن هنا كان بسبب انتمائه للماركسية متعاطفاً مع الثوار الجزائريين ومع القضايا التي يحاربون من أجلها، بل إنه كان يقول عن

نفسه بأنه كورسيكيا وليس فرنسيا، موحيا بذلك أنه، ربما، واقع تحت استعمار فرنسا كالجزائريين. وعليه، فقد شكلت عوالم عديدة وعي بطل الرواية الشاعر الذي يكتب بالفرنسية التي أتقنها منذ كان صغيراً مما مكنه من الاطلاع على ما كتب بها من أدب وفكر، إلى جانب التزام قوي بعروبة الجزائر وتراثها العربي الإسلامي التزاماً يصل حد التعصب، ثم اطلاعه على الفكر الماركسي الذي وسع من آفاق وعيه للعالم وعمق فهمه لما يدور في هذا العالم، وقبل كل هذا نشأته في بيت شكلت الثورة والقضايا الوطنية كل شيء فيه. ومن هنا كان من الطبيعي أن يكون هذا الشاعر المثقف إلى جانب الجماهير الفقيرة لأنه بذلك يكون مع وطنه الذي يتعالى عنده على أي فريق أو حزب. إن عدم انتمائه إلى حزب سياسي معين جعله يبدو وكأنه يعيش منعزلاً عن الآخرين، لكنه ما أن يسمع أصوات الجماهير في الشارع حتى يهرع مسرعاً ليعرف عن قرب حقيقة ما يجري.

لقد استيقظ الشاعر بطل الرواية على أصوات الجماهير الهادرة الهائلة لنظام الحكم الجديد، إنهم جماعات "يرتدون قمصاناً بيضاء، ويضعون على رؤوسهم قلنسوات بيضاء متساوية الأحجام، مثلما هم متساوون السن والقامات، واللحي المتدلية، لا يدري المرء إن كانت اصطناعية أم طبيعية".⁽¹⁹⁾ من الواضح أن الكاتب يصف هنا الجماعات الإسلامية، ويصورهم هنا بأنهم لا تمايز بينهم ولا اختلاف، مما يوحي بفكر مستبد واحد لا يسمح بأي تعددية في المواقف أو اختلاف في الأفكار. كما يوحي بأن ما يجمع بين هذه الجماهير الحاشدة هو المظهر الخارجي فقط لا الجوهر، إذ قد تكون هذه الجماعات مختلفة في الجوهر، وهذا ما سيظهر من الاختلافات بين مجموعة الملتحين المسلحين الذين أوقفوا الشاعر بطل الرواية وتحدثوا إليه؛ حيث اختلفوا حول الاسم الذي سيطلقونه على الحكم الجديد.

فأحدهم سماه الدولة الإسلامية، وسماه الثاني الجمهورية الإسلامية، وسماه الثالث الخلافة الإسلامية، أما الرابع فقد سماه الحكم الإسلامي. ومن الواضح أن الكاتب يريد القول بأن بعض فئات الحركة الإسلامية ليس لديها منهج واضح تسيير عليه بعد تسلم الحكم، وأن كل ما يجمع الفئات المنضوية في الحركة الإسلامية هو ضرورة التخلص من النظام القائم. ومن المعروف أنه قد انضمت إلى الحركة الإسلامية فئات عديدة من جماهير الشعب التي خاب أملها في نظام الحكم القائم وبحثت عن الخلاص في الماضي، وفي الدين بشكل خاص، ليكون ملاذاً لها، كونه الملاذ الوحيد المتاح، في مواجهة حياة التفرنس والفساد التي يحياها نظام الحكم والفئات الملتفة حوله في سبيل مصالحها الخاصة. إن العديد من الأفراد الذين انضموا إلى الحركة الإسلامية كانوا كما يقول الكاتب:

ممن زار أوروبا في السابق بل كان الكثير منهم يحلم أن يظل يروح ويجيء إلى أوروبا يبيع ويشترى، ولربما يرتكب الآثام، هكذا ودون مقدمات، دون أي تنظير، أو مقدمات يولي ظهره مرة واحدة إلى الرجل الأوروبي، فيتنكر لمظهره تمام التنكر. وسرعان ما نزعوا سراويلهم وارتدوا الجلابيب، وأطلقوا اللحي، واستسلموا لسرداب من سراديب الماضي. (20)

ولكن، مهما يكن من أمر، فقد كان هؤلاء من الجماهير الكادحة، سواء أكانوا على خطأ أو على صواب. وهل يجوز لمنقف ثوري كرس حياته لخدمة الجماهير والدفاع عنها، مثل بطل الرواية، أنه يقف ضدهم؟ هكذا سأل الشاعر المنقف بطل

الرواية نفسه. وظل يسأل نفسه "هل يمكن أن تكون بيني وبين هؤلاء صلة ما؟ هل ينبغي أن تكون بيني وبين هؤلاء الناس صلة ما؟ انفتحت آلاف الدهاليز في رأسه".⁽²¹⁾ إن الكاتب يؤكد هنا أن بطل الرواية، في تكوينه الثقافي والفكري، وفي رؤيته للتغيير والمستقبل المنشود، يختلف عن هذه الجماهير التي يراها استسلمت للماضي ولسراديبه. لذلك نلاحظ ثمة حيرة تولدت في نفسه، تتمثل في تساؤلاته عن نوع الصلة التي يمكن أن تجمعها مع هؤلاء الناس، إن كان ينبغي أن تكون ثمة صلة بينه وبينهم. كذلك تتبدى الحيرة من خلال موقفه عندما وقف مراقباً ما يجري رغم الرغبة التي ساورتها بالانضمام إلى الحشود، لكن نفسه لم تطاوعه بالانضمام إلى حشود "توقف عندها العقل وفضول المعرفة ولا ترى في الإسلام سوى الجبة واللحية". لكنه يعرف أيضاً أنه لا يمكنه الوقوف على "حافة النهر طويلاً، فإما أن أنزل مع النازلين، وإما أن أظل متفرجاً إلى أن يقذفوني بالحجارة".⁽²²⁾ إن بطل الرواية يدرك، كما يبدو، أن المثقف الملتزم بقضايا مجتمعه لا يجوز له، ولا يمكنه أصلاً، الانعزال عن الواقع مهما كان هذا الواقع متخلفاً أو مختلفاً عن كل تطلعاته. لذلك بحث بطل الرواية عن أسباب تحول الجيل الجديد إلى الدين وإلى الماضي، وتركه كل الأفكار التي كان يعتنقها الجيل السابق، وفي هذا السياق يعرض الكاتب لعيوب أكثر من ربع قرن من مسيرة المجتمع الجزائري. فهذا الجيل يجد نفسه فجأة في وطن امتص جيل الآباء كل خيراته واستنفدها، ليحرم من هذه الخيرات السواد الأعظم من جماهير الجيل الجديد، في حين ما تزال فئة تنعم بكل مظاهر الترف المادي وهي فئة لا تعمل ولا تنتج رغم أنها تنعم بالوظائف.⁽²³⁾ ولذا، من الطبيعي، كما يرى الكاتب، أن يهرع السواد الأعظم من أفراد الفئة الأولى إلى المساجد لتمتلي بالشباب من الجنسين، بل تمتلي بهم الساحات

التي كانت فارغة قبل سنوات قليلة، لأن "البطالة ضاربة أطنابها والخريجون كثروا، والله غالب".⁽²⁴⁾ وقد وجد هذا الجيل أن دم الثوار قد ذهب هدرًا، وأن "تضحيات المجاهدين [أصبحت] عملة صعبة ترتفع أسعارها في بورصة المضاربات كل يوم".⁽²⁵⁾ لقد تحولت البرجوازية التي تسلمت السلطة إلى أداة لهدم الثورة وإلى المتاجرة بدماء الشهداء، وبذلك خانت السلطة جماهيرها، وهذا ما حدث في العديد من الدول التي خانت حكوماتها طبقاتها الشعبية ومبادئها، وتحولت إلى حكومات مرتزقة؛ حيث أفسدت الشعب بعد أن جوعته وجعلته يلهث وراء بريق المادة، كما حدث في الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية سابقًا، حيث صار يباع الله ولينين وماركس بدولار.⁽²⁶⁾

إن الوعي العميق الذي يمتلكه بطل الرواية مكنه من رؤية الواقع على حقيقته دون أن تزور هذا الواقع الشعارات الزائفة وتلونه بألوانها. لقد أحس بأن الأمور قد وصلت إلى مفترق طرق "ها مفترق الطرق، أمامك .هوية تضيع. شعب جديد... هذا الشعب يولد من زمن عاقر".⁽²⁷⁾ إنه مفترق طرق على مستوى مسيرة المجتمع؛ فقد وصلت الأمور إلى نقطة لا يجوز بعدها استمرار ما كان سائدًا في الماضي، بل لا بد من ولادة جديدة لهذا المجتمع وإلا كان الموت نهاية ذلك المجتمع. إنها ولادة جديدة يجب أن تقوم على مقومات جديدة. وهو مفترق طرق على المستوى الشخصي أيضًا. وهذا يعني أن بطل الرواية قد وجد نفسه شخصيًا أمام واقع جديد يحتم عليه تغيير طريقة تفكيره القديمة كي يتمكن من فهم الواقع الجديد بعيدًا عن معميات طريقة تفكيره السابقة؛ أي أنه أحس، وهو الشاعر المثقف الماركسي ضرورة أن يغير طريقة تفكيره الماركسي القديمة التي لم تكن ترى في الحركات الدينية سوى حركات رجعية لا يمكن أن تعمل لمصلحة الجماهير الفقيرة،

وأن عليه، بعد الآن، أن يرى أن الدين يمكن أن يكون عامل خلاص للجماهير الفقيرة عندما تعجز البرجوازية عن التحول إلى الاشتراكية أو الرأسمالية، وعندما تخون الأحزاب التقليدية التي رفعت لواء الاشتراكية جماهيرها؛ فيتحول المناضلون التقليديون إلى انتهازيين أو تجار متكسبين على حساب الجماهير الفقيرة. إن هذا التحول والتغيير في أسلوب التفكير لا يتناقض مع فكر ماركس أو مع روح الفكر الماركسي الذي يهدف إلى تحرير الفقراء من ربقة الاستغلال، ولا ضير إذا كان الدين هو العامل الذي يحقق ذلك؛ فالهدف الجوهري هو تحقيق مصالح الجماهير الفقيرة.

من خلال هذا العقل المتفتح والفكر المتجدد استطاع بطل الرواية أن يرى في بعض تيارات الحركة الإسلامية ما يمكن أن يكون صالحاً لقيادة البلاد وإخراجها من أزمتها ليخطو بها إلى مستقبل يحقق آمال الجماهير الشعبية. لذلك نراه يتجاوب مع الشاب صاحب اليد التي امتدت إليه من بين الشباب الملتحين الذين التقى بهم عندما أوقفوه. فبعد حديث قصير مع بطل الرواية عرف ذلك الشاب أن الحركة الجديدة تحتاج إلى أمثال هذا العالم المؤمن. وكذلك رأى بطل الرواية في اليد التي امتدت لتصافحه أمل المستقبل؛ فهي ليست باليد المدمرة، كما أنها يد لا تنفي الآخر، وتخطط لمستقبل بعين بناءة تحتاج إلى طاقات الجميع البناءة. ومن هنا حدث اللقاء الفكري بين الاثنين. لقد رأى في هذا الشاب جماع ما يمكن أن يكون صالحاً لبناء مستقبل مشرق للجزائر، إذ رأى فيه ما يوحي "بأصالته كجزائري، وفيه شيء من كل شيء. إفريقية، على أبيض متوسطية، عروبة على بربرية". (28) وعليه، فهذا الشاب يمثل جزائر المستقبل التي يحلم بها بطل الرواية والكاتب، حيث تجتمع فيه كل الخيوط المختلفة التي يمكن أن تشكل نسيج مجتمع المستقبل الذي

يكفل بإخراج الجزائر من وضعها المأزوم الحالي، فهذا النسيج غني بالتنوع بعيداً عن سيطرة عنصر على العناصر الأخرى، وبعيداً عن التعصب العرقي أو القومي أو الانحصار في هوية جامدة. وفوق هذا، فقد رأى بطل الرواية في هذا الشاب مواصفات القائد المناسب لمجتمع المستقبل؛ فهذا الشاب مهندس نبط تعلم علوم الشريعة، وبذلك جمع بين علوم الدين والدنيا. وهو يناصر العقل والاعتدال، ويبغض الجهل والتطرف، ويهدف إلى إنجاز ثورة إسلامية حقيقية. "شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية".⁽²⁹⁾ لقد اختار الكاتب لهذا الشاب اسماً حركياً هو عمار بن ياسر، وهو اسم محمل بالرموز؛ فعمار بن ياسر كان قبل الإسلام من المستضعفين، وقد عانى كثيراً وتعرض للعذاب جرّاء إسلامه، ومع ذلك لم يغيّر مبادئه ولم يتزعزع عن إيمانه. ولم يكن إسلامه طمعاً بمنصب أو بمال أو بجاه، كما فعل بعض السادة. لذلك يمثل عمار بن ياسر ثورة المستضعفين أو المهمشين الفقراء في المجتمع الجزائري المعاصر. إنه ينتمي إلى جيل فقد ثقته بالنظام القائم وبالجيل الذي قام عليه. ولقد انساق إلى الحاضنة الوحيدة المتيسرة، أي الدين، وعكف على الدراسة التقنية والتفقه في الشريعة. والهدف أمام هذا الجيل الذي يمثله عمار بن ياسر هو تقويض أركان النظام القائم من أجل العودة إلى نقطة تكون البداية الصحيحة التي تعود بالأمور إلى نصابها الصحيح وتكون نقطة انطلاق إلى المستقبل.⁽³⁰⁾ إنه جيل يؤمن بعدم إمكانية إصلاح النظام القائم، ولذلك لا بد من الخلاص منه ومن كل ما يمثله. ولذلك قرر عمار بن ياسر، ممثل هذا الجيل، أن يحدث قطيعة مع الماضي ممثلاً بأبيه الذي صار يرى فيه نقيضاً له، وهو الأب الذي حرر البلاد ولكنه خسر لغته وطبع بطابع فرنسي حجب عنه تراثه. ولذلك لا يمثل الأب لهذا الابن سوى امتداد للمستعمر؛ حيث يرى هذا الابن أن الأب يستخدم

نفس أساليب المستعمر، سيده السابق؛ حيث ينادي بالديمقراطية لكنه يرفض النتيجة التي ليست في صالحه؛ "إنها رؤيتك يا سيدي التي ليست سوى رؤية الآخر". (31)

ولا عجب، والحالة هذه، أن يبدأ العهد الجديد بتغيير اسم الساحة التي اجتمعت بها الجماهير الهادرة من ساحة أول ماي إلى ساحة الدعوة. إن لهذا التغيير دلالات كبيرة. فالأول من ماي هو عيد العمال العالمي، أحد رموز الفكر الاشتراكي الذي كان النظام السابق يدعي تبنيّه. أما كلمة الدعوة فهي نابعة من التراث الإسلامي، بل تعود إلى بدايات الإسلام الذي قام على الدعوة أولاً. ومن هنا فهذا التغيير يمثل إشارة إلى البداية الجديدة التي تمثل دورها ولادة جديدة لمجتمع جديد. ولقد رأى الشاعر بطل الرواية وعمار بن ياسر الشاب الثائر مهندس النفط أحدهما مكملًا للآخر، وأنهما ضروريان معاً لبناء مستقبل حقيقي جديد للجزائر. لكن المفسدين والمستغلين وذوي المصالح الخاصة لا يستسلمون بسهولة، خاصة إذا رأوا أن التغيير سيهدد مصالحهم. ولذلك مثل بطل الرواية خطراً على هذه الفئات. ولأنه شاعر مثقف "لا يشغله سوى القراءة والمناقشة والتحليل"، (32) ولأنه لم يحصر نفسه في الانتماء إلى حزب سياسي معين أو إلى مجموعة ذات مصالح معينة، بل كان كل انتمائه إلى وطنه الذي يرى فيه "حبيبة الروح، شمعة دهليزه، الشمعة الوحيدة التي انبثق نورها في دهليزه والتي يتمنى أن لا تنطفئ، والتي وثق من أن نورها أقوى من جميع الأنوار". (33) تألبت ضده جميع القوى المعارضة للتغيير الحقيقي. ولذلك، عندما تم إلقاء القبض عليه وشكلت له محاكمة صورية، أجمع كل من ممثلي السلطة الحاكمة والانتهازيون والمتفرنسون والجماعات الدينية ذات الفكر المتحجر، على إدانته والحكم عليه بالموت لأنه:

علمته فرنسا لكي يكون أحد إطارات الجزائر في المستقبل لكنه انضم للأهالي وصار عامل هدم. إنه عض اليد التي أحسنت إليه. إنه خطر على فرنسا وبذلك فهو خطر على الجزائر وعلى حلف الأطلسي ومجلس التعاون الخليجي والعروبة أيضاً ... لذلك يجب الحكم عليه بالموت بالرصاص. (34)

وهكذا كان الموت قتلاً مصير بطل الرواية الشاعر المثقف المتنور. لقد قتله الجميع؛ التخلف والسلطة والاستعمار. ولم يفهمه وينصفه ويحزن عليه سوى صنوه عمار بن ياسر وزهيرة الفتاة التي أحبها بكل جوارحه والتي ويبدو أنها بادلت ذلك الحب، خاصة أن معرفتها به أحدثت لديها تغيرات كثيرة في وعيها وفي رؤيتها للحياة. لذلك وقفت بحزن عند رأسه وهو مسجى جثة هامة ممزقا بالخناجر والرصاص. إن هذه الفتاة يمكن أن تكون رمزاً لبلاده الجزائر التي قضى شهيداً أو قتيلاً لأجلها؛ فهذه الفتاة تبدو في الوقت الواحد آسيوية إفريقية، يضرب لونها إلى بياض وسمرة وزرقة. (35) وكما هو متوقع، كان عمار بن ياسر الأشد شعور بالفجيعة وبفداحة الخسارة لاغتيال هذا الشاعر المثقف الذي نعتة بالشهيد الأول في تاريخ الجمهورية الإسلامية؛ فقد كان عمار "يعرف كفاءته العلمية وعمق ثقافته وماضيه النضالي في الحركة الإسلامية". (36) لذلك كان عمار حانقاً تهرب منه العبارات فلا يجد فيها ما يعبر عما يحسه ويعانيه، ولم يستقر صوابه على موقف يتخذه.

لقد ترك الكاتب بطل روايته دون اسم محدد، وكأنه بذلك أراد أن يمثل كل المثقفين الجزائريين الذين لاقوا المصير نفسه، الذي لاقاه بطل الرواية لأنهم حاولوا إنارة شمعة وسط دهاليز الظلام.

الهوامش

- 1- الطاهر وطّار، اللّاز، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 8
- 2- عبد الفتاح عثمان، الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص 18. وانظر كذلك، محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 26.
- 3- الطاهر وطّار، الشمعة والدهاليز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996. وسنشير إليها في المتن وفي الهوامش بعد الآن بالرواية.
- 4- غازي حيدوسي، الجزائر: التحرير الناقص، دار الطليعة، بيروت، 1997، ص 6
- 5- صالح فيلالي، "أيدولوجيا الحركة الوطنية الجزائرية"، في كتاب الأزمة الجزائرية، الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لمجموعة من المؤلفين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996، ص 38. وسنشير لهذا الكتاب في الهوامش بعد الآن بكتاب الأزمة الجزائرية.
- 6- منعم العمار، "الجزائر والتعددية المكلفة"، في كتاب الأزمة الجزائرية، ص 41.
- 7- غازي حيدوسي، ص 48.
- 8- جمال العبيدي، "التعريب والتناقضات الاجتماعية في الجزائر"، في كتاب الأزمة الجزائرية، ص 435.
- 9- حاتم رشيد، الأزمة الجزائرية... إلى أين؟ دار سندباد للنشر، عمان، 1999، ص 21
- 10- على الكنز وعبد الناصر جابي، "الجزائر في البحث عن كتلة اجتماعية جديدة"، في كتاب الأزمة الجزائرية، ص 222.
- 11- حاتم رشيد، ص 25.
- 12- الرواية، ص 76-78.

- 13- مغنيّة الأزرق، نشوء الطبقات في الجزائر، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980، ص 182.
- 14- خوان غويتيسولو، دفاتر العنف المقدس، ترجمة طلعت شاهين، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1996، ص 85.
- 15- منعم العمار، ص 51.
- 16- العباشي عنصر، "سوسيولوجيا الأزمة الراهنة في الجزائر"، في كتاب الأزمة الجزائرية، ص 181.
- 17- الرواية، ص 44.
- 18- الرواية، ص 45.
- 19- الرواية، ص 17.
- 20- الرواية، ص 18.
- 21- الرواية، ص 59.
- 22- الرواية، ص 171.
- 23- الرواية، ص 110-111.
- 24- الرواية، ص 128.
- 25- الرواية، ص 153.
- 26- الرواية، ص 154.
- 27- الرواية، ص 134-135.
- 28- الرواية، ص 26.
- 29- الرواية، ص 27-28.
- 30- الرواية، ص 84.
- 31- الرواية، ص 176.

32- الرواية، ص 96

33- الرواية، ص 13

34- الرواية، ص 182-192

35- الرواية، ص 197

36- الرواية، ص 196

المراجع والمصادر

- 1- الأزرق، مغنية، نشوء الطبقات في الجزائر، ترجمة سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980.
- 2- حديوسي، غازي، الجزائر: التحرير الناقص، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1997.
- 3- رشيد، حاتم، الأزمة الجزائرية ... إلى أين؟ دار سندباد للنشر، عمان، 1999.
- 4- الرياشي، سليمان وآخرون، الأزمة الجزائرية، الخلفيات السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996.
- 5- عثمان، عبد الفتاح، الرواية العربية الجزائرية ورؤية الواقع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993.
- 6- غويتيسولو، خوان، دقاتر العنف المقدس، ترجمة طلعت شاهين، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1996.
- 7- مصايف، محمد، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983.
- 8- وطار الطاهر، اللاز، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
- 9- وطار الطاهر، الشمعة والدهاليز، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996.